﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

عودٌ إلى خطابِ المشركين بعد تذكيرهم بحالِ الشّاكرين والكافرين ممّن مضى

لَمّا أثبَتَ سُبحانَه لنَفْسِه ولِذاتِه الأقدسِ مِن المُلْكِ في السَّمَواتِ والأرضِ وغَيرِهما ممّا مَرَّ ذِكْرُه، واستدَلَّ عليه مِن الأدِلَّةِ الَّتي لا يُمكِنُ التَّصويبُ إليها بطَعنٍ، وكان المقصودُ الأعظَمُ التَّوحيدَ؛ فإنَّه أصلٌ يَنبني عليه كُلُّ خَيرٍ؛ قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَعَمۡتُم﴾: (زعم) أصلُ الزَّعْمِ: القَوْلُ مِنْ غيرِ صِحَّةٍ ولا يَقين، وأَكثرُ ما يُقالُ فيما يُشَكُّ فيه ولا يتحقَّقُ، ويُطلَقُ كذلك على الكَلامِ الَّذي لا سَنَدَ له[2]، والزَّعْمُ، والزُّعْمُ، والزِّعْمُ، ثَلاثُ لُغاتٍ: القَوْلُ، وقيلَ: الزَّعْمُ الظَّنُّ[3]، قالَ شُرَيْح: "لكلِّ شَيْءٍ كُنية، وكُنيةُ الكَذِب: زَعَمَ، والزَّعْمُ: ادِّعاءُ العِلْمِ بالشَّيْءِ؛ ولِهذا يتَعَدَّى إلى مفعولَيْن"[4]، والمُرادُ بالزَّعم في الآية: الكذبُ؛ أيْ: زعمتموهم آلهة[5].

2) ﴿مِثۡقَالَ﴾: أصلُ (ثقل) ضِدُّ الخِفَّة[6]، والتَّثْقيلُ: ضِدُّ التَّخْفيف، والثِّقْلُ: واحِدُ الأَثْقالِ[7]، والأثْقالُ: الأحمالُ الثّقيلة، ومِثْقالُ الشَّيْءِ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 15/ 492.
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زعم).
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 488.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 22/ 77.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(7) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ثقل).

ميزانُهُ مِنْ مِثْلِه، وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: زِنةِ ذرّة[1]، والمِثْقالُ: ما يوزنُ به، وأصلُه في الأجسام، ثمّ يُقالُ في المعاني[2]، وكُلُّ شَيْءٍ لَهُ قَدْرٌ ووَزْنٌ يُنافَسُ فيه فَهوَ ثِقْل، والمِثقالُ: وزنٌ مَعْلومُ القَدْر[3]، ومعنى المثقال في الآية موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيّ: وزنُ ذرّة.

3) ﴿ظَهِيرٍ﴾: (ظهر) أصلٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، يُقال: ظَهرَ الشَّيْءُ يَظْهرُ ظُهورًا فَهوَ ظاهرٌ؛ إذا انْكَشَفَ وبَرزَ، والأَصلُ فيه كُلِّه: ظَهرُ الإنْسانِ، والظَّهيرُ: المُعينُ، كَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلى ظَهْرِكَ، والظُّهورُ: الغَلَبَةُ[4]، وتَظاهرَ القومُ: تَعاوَنوا، وظاهَرَه: عاوَنَهُ، والظَّهيرُ: العَوْنُ، يُقال للواحد وللجَميع، فيُقال: هو ظَهيرٌ، وهم ظَهيرٌ[5]، ومعنى الظّهير في الآية: المُعينُ القويّ[6]، وهو موافقٌ للمعنى اللّغويّ؛ أيّ: وما له منهم من مُعينٍ على شيءٍ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذِكْره: قلْ أيّها الرّسول الكريم لهؤلاء المشركين على سبيلِ التّقريع والتّوبيخ: هؤلاء آلهتُكم الذين زعمتُموهم آلهةً من دونِ اللّه، اطلبوا منهم أنْ ينفعوكم، أو أنْ يرفعوا عنكم ضُرًّا نزلَ بكم، إنّهم بالقطعِ لنْ يستطيعوا شيئًا من ذلك؛ فهؤلاء الشّركاء لا يملكون شيئًا استقلالًا ولا على سبيلِ الشّركة، لا في السّماوات ولا في الأرض؛ بل الذي يملكُ كلّ شيء هو اللّهُ تعالى وحدَه، وما للّهِ من الآلهةِ التي يدعونَ من دونه معينٌ على خَلْقِ شيءٍ من ذلك، ولا على حفظه، وما فوّضَ إلى شيءٍ شيئًا[8].

توبيخٌ وتقريعٌ للمشركين لزعمهم آلهةً عاجزةً لا تملكُ شيئًا ولا تُقدِّمُ عونًا

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 175.
(3) نشوان الحميريّ، شمس العلوم: (المثقال)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 323.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (ظهر).
(6) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 20/ 12313.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، والواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 355.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 203، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علاقةُ الجملة بما قبلَها ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾:

جاءتْ جملةُ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾ استئنافَ خطابٍ للنّبيّ ﷺ ؛ ليَطلبَ من المشركين على سبيلِ التّقريع والتّوبيخ أنْ يدعوا آلهتَهم المزعومة؛ للكشفِ عن حالِ هذه الآلهة، وعن حقيقتها من العجزِ وعدم القدرة على شيء[1].

خطابٌ للنّبيّ أنْ يطلبَ من المشركين - تهكُّمًا وتوبيخًا - دعاءَ آلهتِهم العاجزة

دلالةُ القول في الفعل ﴿قُلِ﴾:

افتُتحتِ الآيةُ بكلمة ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم﴾، وهو أمرٌ للنّبيّ ﷺ بأنْ يقولَ للمشركين أنْ يدعوا آلهتَهم المزعومة، ولم يخاطبهم مباشرةً، فلم يَقُلْ: (ادعوا الذين زعمتم)، وذلك تجديدًا لمعنى التّبليغ الذي هو مهمّةُ النّبيّ ﷺ في كلّ القرآن[2]، وبيانًا لعُلوّ مقامِ الرّسالةِ، ومقامِ الرّسول من ربّه.

خطابٌ يُظهِرُ مقامَ الرّسول وأهميّةَ مهمّتِه في التّبليغ

غرضُ الأمر في ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾:

الأمرُ للمشركين بأنْ يَدْعوا آلهتَهم المزعومةَ في قوله سبحانه: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليس من بابِ التّكليف، وإنّما غرضُه التّوبيخُ والتّهكُّمُ والتّحدّي، وإقامةُ الحُجّة والتّخطئةُ، وإظهارُ بُطلانِ ما هم عليه من عبادةِ آلهةٍ عاجزةٍ لا تملكُ شيئًا، وتبكيتًا لهم، وكذلك غرضُه التّعجيز؛ أيْ: بيانُ عجزِ المأمور، وهي الآلهةُ المزعومة، والمعنى: ادْعوهم فيما يَهمُّكم كما ادّعيتُم أنّهم شفعاؤنا في أمورِ الدُّنْيا، واستمرّوا على دعائكم فلنْ يُجيبوكم، فهم لا يملكونَ مثقالَ ذرّةٍ في السّماواتِ والأرض[3].

أمرٌ إلهيٌّ للمشركين يتضمّنُ توبيخًا وتبكيتًا لهم، وإظهارًا لعجزِ آلهتِهم المزعومة

الدّعاءُ يشملُ دعاءَ الإحضار، ودعاءَ المسألة والاستغاثةِ وطلبِ

الآلهةُ عاجزةٌ عن تدبير أمر أنفسِها، فبأي عقلٍ يدعونها؟.

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 203، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 497، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 264.

الحوائج؛ أيْ: أَحضِروهم؛ لنُناقِشَهم، أوِ ادْعوهم دُعاءَ مَسأَلة[1]، أو اسألوهم فيما يهمُّكمْ لتعلموا هل يملكونَ جَلْبَ النّفعِ لكم، أو دفعَ الضّرّ عنكم، ولهذا أجابَ اللّهُ عنهم - قبل أنْ يجيبوا، بل قبلَ أنْ يسألوا به - بأنّهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[2]، وقد آثَرَ القرآنُ التّعبيرَ بلفظ الدّعاء دونَ غيره؛ لاتّساعِ دلالةِ لفظ الدّعاء؛ ومناسبتِه للسّياقِ الذي هو سياقُ توبيخٍ وتقريعٍ للمشركين على اتّخاذهم آلهةً من دون اللّه، وعبادتِها والحرصِ على استمالةِ رضاها[3]، والتّضرّعِ إليها، وجَذْبِ رحمتِها، والابتهالِ إليها بالسّؤال[4].

مرجع ضمير المُخاطَبين في جملة ﴿ٱدْعُواْ﴾:

في أمرِ المشركين بدعاء آلهتهم المزعومةِ مبالغةٌ في تخطئتهم وعجزِ آلهتهم

مرجعُ ضميرِ المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هم المشركون من قومِ النّبيّ ﷺ، الذين ضُرِبَ لهم المَثَلُ بقصّة سبأ المعروفةِ عندهم بالنّقلِ في أخبارهم وأشعارهم، فتكون ﴿قُلِ﴾ موجّهةً إليه ﷺ بأنْ يقولَ للمشركين - من كفّارِ قريش أو للكفّار على الإطلاق -: اطلبوا من الذين زعمتُموهم آلهةً من دون اللّه أنْ ينفعوكم، أو أنْ يرفعوا عنكم ضُرًّا نزلَ بكم[5].

ألَكُم مسحةٌ من عقل؟ ادعوهم، فهل يجيبونكم؟.

ويحتملُ أنْ يكونَ الخطابُ عامًّا لكُلّ مَن دعا مع اللّهِ تعالى غيرَهُ من كُفّار مَكّةَ وغيرِهم، وتكون ﴿قُلِ﴾ موَجهةً لكلّ مَن يَتوَجّه الخطاب إليه؛ من الرّسول ﷺ أو غيرِه ممَّن ورِثَه في أُمّتِه؛ أيْ: قُلْ أيّها المؤمنُ للذين يَدعون مع اللّه تعالى غيرَه: ادْعوا الذين زعمتُموهمُ آلهةً[6]، وفي إسنادِ طلبِ الدّعاء من مجموعهم مزيدُ تبكيتٍ وتَهَكُّمٍ بهم،

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 159.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 498.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (دعو).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دعو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 264، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 372.
(6) ابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 158.

وتخطئةٍ لهم، ومبالغةٌ في عجزِ آلهتِهم، فلو أنّهم دَعَوا بمجموعهم الأصنامَ التي يعبدونها، فلن يستجيبوا لهم ولنْ ينفعوهم، أو يرفعوا عنهم ضُرًّا نزلَ بهم.

غرض التّعبير بالموصول في المفعول ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾:

سببُ توبيخِ المشركين وتخطئتِهم زعمُهمُ الباطلُ بوجودِ آلهةٍ من دونِ الله

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لبيانِ أنّ مَنِ اتّخذوهم آلهةً من دونِ الله، وجعلوهم مُستحقّينَ للعبادةِ والدّعاء كان بناءً على زعمٍ منهم، وللإيماء إلى أنّ سببَ توبيخهم والتّهكّم بهم وتخطئتِهم هو ذلك الزّعم، كما أنّ في التّعبيرِ بالاسمِ الموصول إفادةَ العموم؛ ليَشملَ دعاؤهم كلَّ من زعموهم شركاءَ من دونِ الله من الأصنام والملائكة وغيرهم، وفي طلبِ دعاءِ جميعِ مَن زعموهم آلهةً زيادةُ تعجيزٍ لهم.

سرُّ إيثار التّعبير بالفعل ﴿زَعَمْتُم﴾:

بيانُ شناعةِ قولِ المشركين الباطلِ بأنّ للهِ شركاءَ

عبّر النّظمُ الحكيم بلفظ الزّعم في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾؛ للتّناسبِ بين معاني الزّعم في اللّغة وبين السّياقِ والمقام؛ إذ أصلُ الزّعمِ هو القولُ من غيرِ صحّةٍ ولا يقينٍ، فهو حكايةُ قولٍ يكونُ مظنّةَ الكذبِ، والزّعمُ أيضًا التّكفّلُ بالشّيء[1]، وأكثرُ ما يُستعملُ الزّعمُ فيما يُشَكُّ فيه، أو يكونُ باطلًا، وقد استعمله القرآنُ في مواضعِ ذمِّ القائلين[2]، وهذه المعاني كلُّها تتناسبُ مع حالِ المشركين الذين زعموا بأنّ للهِ شركاء، ويتناسبُ مع سياق التّوبيخ والتّقريع والذّمّ لهم، وقد جاء لفظُ الزّعمِ بصيغة الفعل الماضي ﴿زَعَمْتُم﴾؛ ليدلَّ على تحقّقِ وقوعِ هذا الزّعم منهم؛ فيكون في ذلك مزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ لهم على شناعةِ زعمهم وتحقّقه منهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (زعم).
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 488.

غرضُ إسنادِ الفعل ﴿زَعَمْتُم﴾:

الذّمُّ يشملُ جميعَ المشركين، وتحمّلُ تَبِعَةِ قولهم تطالُهم لاتّفاقهم عليه

أسندَ البيانُ القرآنيّ فعلَ ﴿زَعَمْتُم﴾ إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ إلى إجماعِ المشركين على هذا الزّعم واتّفاقِهم عليه، وأنّه صدرَ من الجميع، دون أنْ يبحثوا عن دليلٍ أو يقينٍ لزعمهم هذا، ومن ثمّ فالذَّمُّ يشملهم جميعًا، وتحمّل مسؤوليّة وتبعةِ قولهم تطالُهم جميعًا.

غرض حذف مفعولي ﴿زَعَمْتُم﴾:

استهجانٌ واستبشاعٌ لِما يزعمهُ المشركون، فهو كذبٌ وافتراءٌ وأوهامٌ

في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حُذف مَفْعولا ﴿زَعَمْتُم﴾ بسببيْن مختلفيْن، وقد دلّ عليهما السّياقُ؛ فالمفعولُ الأوّل: هو الضّميرُ المحذوفُ الرّاجعُ إلى الموصول، وتقديره: (زعمتموهم)، حُذفَ قصدًا لتخفيفِ الصّلةِ بمتعلّقاتها؛ لطولِ الموصولِ لصلته، والمفعولُ الثّاني: وتقديره: (آلهة) أو (أولياء)، أو (أربابًا)؛ حُذفَ لدلالةِ صفته عليه، فهو موصوفٌ، صفتُه ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والموصوفُ يجوزُ حذفُه وإقامة الصّفة مقامَه إذا كان مفهومًا[1]، وقد حُذفَ المفعولُ الأوّل تخفيفًا، وحُذفَ الثّاني لقيام الصّفةِ مقامَ الموصوف، والمعنى: ادْعوا الذين عبدتُموهم من دونِ اللّه، فيما يهمُّكم من جَلْبِ نفعٍ ودَفْعِ ضرّ؛ لعلَّهم يستجيبون لكم إنْ صحّ دعواكم[2]، وبلاغةُ حذفِ مفعولي (زعم) - وهما ضميرهم وتألّههم - ؛ تنبيهٌ على استهجانِ ذلك واستبشاعه[3]، وتحقيرٌ لهم فيما يزعمونه، فهو كذبٌ وافتراءٌ وأوهامٌ، يتخيّلها الكَفَرةُ والمشركون لاعتقادهمُ الضّالّ.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيّة؛ أيْ: مبتَدَأون من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 580، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 497، والصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1531.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 249.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

جانبِ غيرِ جانب اللّه، إنْ كانت كلمة ﴿دُونِ﴾ اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، فهي إذًا مُستعارةٌ لمعنى المخالفة، والمعنى: زعمتموهم آلهةً مبتدئين إيّاهم من ناحية غير اللّه؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادةِ اللّه المستحِقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلَهيتَه في أحوالٍ كثيرة وأوقاتٍ وفيرة[1]، ويحتمل أنْ تكون للتّوكيد، إنْ كانت ﴿دُونِ﴾ بمعنى غير، والمعنى: زعمتموهم آلهةً غير اللّه.

لا أشنعَ ممّن زعمَ آلهةً وشُغل بعبادتها، وفرّطَ في عبادةِ المستحقّ للعبادة

سرّ إيثارِ التّعبير بـ ﴿دُونِ﴾:

عبّر النَّظمُ الحكيم بكلمةِ ﴿دُونِ﴾ في الآية، وأضافَها إلى اسمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُلْ: (ادعوا الذين زعمتم غير اللّه)؛ لكون ﴿دُونِ﴾ أوسعَ دلالةً من (غير) وأنسبَ للسّياق؛ فكلمةُ (دون) تأتي بمعنى (غير) وتأتي بمعنى المكان المباعد، وقد أفادتْ هنا معنى (غير)، كما أفادتْ معنى الظّرف والدّونيّة، وكذلك الاستعارةُ لمعنى المخالفة والإعراض، لأنّ ﴿دُونِ﴾ تُؤذِنُ بالحيلولة؛ "لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادةِ اللّه المُستحِقِّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلَهيّته في أحوالٍ كثيرة وأوقاتٍ وفيرة"[2]، فكان في التّعبيرِ بكلمة ﴿دُونِ﴾ مناسبةً للسّياق؛ لبيانِ حقارةِ الآلهةِ التي زعموها وعبدوها من دون اللّه[3]، ولإظهارِ خطأهم؛ حيثُ انصرفوا عن عبادةِ المستحقّ للعبادة إلى عاجزٍ لا يملكُ شيئًا، وكلُّ معبودٍ سوى اللّه سافلٌ حقير.

كلُّ معبودٍ سواهُ سبحانه سافلٌ حقيرٌ لا يستحقُّ العبادة

سرّ إيثارِ التّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بالاسمِ الجليل في قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فلم يقلْ مثلًا: (من دون ربّكم) أو (من

الإعراضُ عن عبادةِ مَن له صفاتِ الجلالِ والكمالِ غايةُ الحمقِ والخطأ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

الرحمن)؛ تربيةً للمهابةِ وإدخالًا للرّوعةِ في النّفوس، ولكونِ الاسمِ الأعظم الجامعِ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ أنسبَ مع السّياقِ الذي هو سياقُ تقريعٍ وتوبيخٍ وتخطئةٍ للمشركين، ولبيانِ حقارتهم وفظاعة فعلهم، حين اتّخذوا آلهةً حقيرةً عاجزةً، لا تملكُ شيئًا ولا نفعًا ولا ضرًّا، وأعرضوا عن عبادةِ المتفضّلِ المستحقّ للعبادةِ سبحانه، ذو الجلالِ والإكرام الذي حازَ جميعَ العظَمة.

علّةُ فصلِ جملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾:

في بيانِ حالِ الآلهةِ التي يَدَّعونها المشركون بيانٌ لتخطئتهم في زعمهم

فَصَلَ البيانُ الإلهيّ جملة: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ عمّا قبلها: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ولم يربطْ بينهما؛ لِما بينَ الجُملتَين من شِبهِ كمالِ اتّصال؛ إذ جاءتْ استئنافًا بيانيًّا، لبيانِ أحوال من زعموهم، كأنّه قيل: ما بالُ هَؤُلاء الآلهة؟ فأُجيبَ بذلك[1]، فهو "كلامٌ مستأنفٌ في موقعِ الجواب، ولم يمهلهم ليُجيبوا؛ إشعارًا بتعينه فإنّه لا يقبلُ المكابرة"[2]، فالجملةُ مبيّنةٌ لِما في قوله: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ من التّخطئة، فأبانَ خطأهم وعظيمَ جُرْمِهم حين عبدوا آلهةً عاجزة[3]، فإذا كانوا من العجزِ والعَوَزِ لا يملكون وزنَ ذرّةٍ في السّماوات ولا في الأرض، فكيف يكونون آلهة تُعْبدُ؟! فلم يمهلهم سبحانه ليجيبوا، بل قال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[4]، أو أن جملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ حالٌ من الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾[5]، أو صفةٌ للآلهةِ المزعومة؛ بيّنتْ حالَ وصفةَ هَؤلاءِ الآلهة في الواقعِ بأنّهم لا يملكون مثقالَ ذرّة[6].

معنى ﴿لَا﴾ ودلالتُها في ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾:

عدمُ مُلكِ آلهتِهم المزعومةِ لأحقرِ الأشياء مستمرٌّ في الحالِ والمستقبل

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نافيةٌ، وقد

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 498.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 309.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 249.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 61، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 159.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 417.

استعملها البيانُ القرآنيُّ دون (ما)؛ لأنّ ﴿لَا﴾ تخلِّصُ المضارعَ للمستقبل بخلافِ (ما)، فإنّها تخلّصُ المضارعَ للحال؛ أيْ: أرادَ الحقُّ سبحانه أنْ يبيّنَ استمرارَ عجْزِ هذه الآلهةِ التي زعمها المشركون في الحالِ وفي المستقبل، وهذا أبلغُ في بيانِ عجزها، وفي إظهارِ تخطئتهم في عبادتها.

سِرّ التّعبير بالمضارع المنفي ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾:

آلهةٌ في منتهى العجزِ والضّعف لا تستحقُّ العبادة

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ (الملك) في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لاتّساع دلالته؛ ومناسبته للسّياق، إذ أصلُ (ملك) في اللّغة يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء وصِحَّةٍ[1]، ومن معاني المُلْكُ: العَظَمة والسّلطان، فالذي يملكُ له القُدرةُ على احْتِواءِ الشَّيْء الذي يملكه وضَبطِه، وله القُدْرَةُ عَلَى الاِسْتِبْدادِ بِهِ، والتّصرّف فيه[2]، فكان نفيُ مُلكِ الآلهة المزعومة لأحقرِ شيء في السّماوات والأرض نفيٌ لقُدرتها وتصرّفها واستبدادِها فيه، فهي لا تملكُ خَلقًا ولا تصرُّفًا، وفي ذلك دلالةٌ على أنّها في منتهى العجزِ والضّعف والحقارة، فكيف بمَن هذه صفته أنْ يكونَ مستحِقًا للعبادة، وأنْ يجيبَ مَن يدعوه؟!

من الحُمق أن تدعو إلهًا لا يملك نفعًا ولا ضرًا

وعبّر البيانُ القرآنيّ بالفعل المضارع المنفي في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾؛ لإفادةِ استمرارِ وتجدّدِ هذا النّفي مهما امتدّ الزّمان - أيْ: عجزِ آلهتهم المزعومة وعدمِ ملكِها لأيّ شيءٍ في السّماواتِ والأرضِ - أمرٌ مُستمرٌّ مُتجدّدٌ، وفي هذا التّعبير دلالةٌ على تخطئتهم في اتّخاذها آلهةً وعدمِ استحقاقها للعبادة، ومن ثمّ عدمِ استجابتها ونصرتها لهم.

سِرّ التّعبير بـ﴿مِثْقَالَ﴾ دون (مِقدار):

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿مِثْقَالَ﴾ في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(2) ابن سِيدَه، المُحكَم، والزّبيديّ، تاج العروس: (ملك).

التّعبيرُ بالمثقال أدقُّ في أنّ المرادَ هو الدّلالةُ على وزنِ الذّرّة الواحدة

﴿ذَرَّةٍ﴾ دون غيرِه من الألفاظ كالمقدار؛ لكون لفظِ المثقال أنسبَ للسّياق، ومجيئه مع لفظ ﴿ذَرَّةٍ﴾، إذِ المثقالُ خاصٌّ بالوزن، فأصلُ (ثقل) ضِدُّ الخِفَّة[1]، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ مِنْ مِثْلِهِ[2]، والمِثقالُ: وزنٌ مَعْلومُ القَدْر[3]، فالمِثقالُ أخصُّ من المِقدار الذي هو المقياس، ويكون في العددِ أو الكيلِ أو الوزن أو المساحة والقضاء والحُكم[4]، فجاء التّعبيرُ بالمِثقال ليُحَدّدَ بشكلٍ أدقّ أنّ المُرادَ هو الدّلالةُ على وزنِ الذَّرّة، وهي ذرّةٌ واحدة، وليس للدّلالةِ على عددها أو كيلها أو مساحتها.

سِرُّ إضافة ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿ذَرَّةٍ﴾:

عـدمُ مُـلْـكيّـةِ الآلـهـة لمثقال ذرّة، مبالغةٌ في عـدم مُلْكيّتِها لأيّ شيء

إضافةُ ﴿مِثْقَالَ﴾ إلى ﴿ذَرَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ بيانيّةٌ؛ فكلمةُ ﴿مِثْقَالَ﴾ نكرةٌ مُبهمةٌ لم يُحدّدْ فيها مثقال ماذا؟ فإضافةُ ذرّة إلى مثقال بيّنَ أنّ الآلهةَ المزعومة لا تملكُ ما يَعْدِلُ الذّرّة فيَثْقُل به الميزانُ، وقد جاء لفظُ ﴿ذَرَّةٍ﴾ نكرةً؛ ليُفيدَ التّقليلَ والتّحقيرَ، فالتّعبيرُ بعدمِ مُلْكيّتِهم لمثقالِ ذَرّة المقصودُ به أنّهم لا يملكون شيئًا على الإطلاق؛ لأنّ مثقالَ الذّرّة أقلُّ ما يُتَصَوّر في الحَقارةِ والقِلّة، وإذا انتفى مِلكُ الأحقر فانتفاءُ مِلْكِ الأعظم أولى؛ أيْ: لا يملكون شيئًا من السّماوات ولا في الأرض[5]؛ فإضافةُ ذرّة إلى مثقال المقصودُ هو المبالغةُ في الحقارةِ، بما تعرفُ العرب[6].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في القيد ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الظّرفيّة، فمُلكُ آلهتهم المزعومة لأيّ شيء، منفيٌ عن أيّ جزءٍ من أجزاءِ السّماوات وما فيها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(3) الرّاغب، المفردات، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: (ثقل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 250، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.

سِرُّ التقييد بقيد السّماوات والأرض:

نفيُ مُلكِ الآلهةِ المزعومة لجميع الموجوداتِ دلالةٌ على منتهى عجزها

قَيَّد البيانُ القرآنيُّ عدمَ مُلكِ الآلهة المزعومة بقيدِ السّماوات والأرض في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتّعميمِ عُرفًا؛ لكونهما ظَرفًا للموجودات الخارجيّة[1]؛ يعني أنّ أهلَ العرفِ يُعبّرون بهما عن جميعِ الموجودات، والمُرادُ نفي قدرتهم على شيءٍ من النّفع أو الضّرّ، أو الإيجادِ أو الإعدام[2] عن جميعِ الموجوداتِ في الكون العلويّ والسّفليّ، ممّا يدلُّ على منتهى عجزها.

سواءً أكانت الآلهة المزعومة سماويّةً أو أرضيّةً فهي عاجزةٌ

ويحتمل أن يكون سببُ التّقييد أنّ آلهتَهم بعضُها سماويّة كالملائكة والكواكب، وبعضُها أرضيّة كالأصنام، فالمُرادُ نفيُ قدرةِ السّماويّ منهم على أمرٍ سماويّ، والأرضيّ على أمرٍ أرضيّ، ويُعلمُ نفيُ قدرتِه على غيرِه بالطّريقِ الأَوْلى، أو لأنّ الأسبابَ القريبة للخيرِ والشّرّ سماويّةٌ وأرضيّةٌ؛ فالمُرادُ نفيُ قدرتِهم بشيءٍ من الأسبابِ القريبةِ فكيف بغيرها؟![3].

دلالةُ التّعبير بالسّماوات والأرض:

جوهرُ السّماوات والأرض لا يدّعي المشركون فيه مُلكًا لآلهتهم

المُرادُ بالسّماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسُهما وجوهرُهما وعينُهما، لا ما تشتملان عليه من الموجودات؛ لأنّ جوهر السّماوات والأرض لا يدّعي المشركون فيه مُلكًا لآلهتهم[4].

معنى (الواو) ودلالتُها في قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

في نفي مُلكِ الآلهةِ المزعومةِ لأيّ شيءٍ في السّماواتِ والأرض مبالغةٌ في عجزها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[5]، والجمعُ بين السّماوات والأرض؛ "لقصدِ التّعميم،

(1) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1532، والشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 372.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 309، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 250.
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 61، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.

إذ هما محلّ الموجودات الخارجيّة؛ أيْ: لا يملكون شيئًا ممّا في هذا الكون العُلويّ والسّفليّ"[1]، وفي هذا مبالغةٌ في عجزهم، وعدمِ استحقاقهم للعبادة.

دلالة تكرار حرف النّفي (لا):

تأكيدُ نفي مُلكِ الآلهةِ المزعومةِ لأيّ شيءٍ في الأرض

كرّرَ النّظمُ الحكيم حرفَ النّفي (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَه في قولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فلم يَقُلْ: (في السّماوات والأرض)؛ تأكيدًا لمعنى النَّفي؛ للاهتمام به[2]؛ أيْ: نفي ملكِ آلهتهم المزعومة لأيّ شيء في الأرضِ، بالإضافة إلى نفي ملكهم لأيّ شيءٍ في السّماوات.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الظّرفيّة، فمُلكُ آلهتِهم المزعومة لأيّ شيءٍ منفيٌّ عن أيّ جُزءٍ من أجزاء الأرض.

لطيفة جمعِ السّماوات وإفراد الأرض:

السّماواتُ سبعٌ ذاتُ أجرامٍ عظيمة، والأرضُ عالمٌ واحد من جنسٍ واحد

جمعَ البيانُ القرآني ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ إرادةً للسّماواتِ السّبعِ ولأجرامها العظيمةِ ذاتِ النّظامِ الخاصّ، المتفاوتةِ بالصّفات والآثارِ والحركاتِ وما فيها من أسرار، وأفردَ الأرض؛ لأنّها عالَمٌ واحد، ولأنّها من جنسٍ واحدٍ، وهو الصَّعيدُ، بالإضافة إلى أنّ الأرض لم تَرِدْ في القرآن إلّا مفردةً، ولمّا أُريد الجمع قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطّلاق: 12][3].

غرض تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾:

السّماواتُ أعظمُ وأعلى وأقدسُ من الأرض

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ في قوله: ﴿لَا

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(3) السّيوطيّ، نواهد الأبكار وشوارد الأفكار: 2/ 355.

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لأمورٍ، منها الجَريُ على عادةِ القرآن الكريم؛ فجميعُ المواضع التي ذَكرَ فيها السّماوات والأرض قُدمتْ السّماواتُ على الأرض إلّا في آيتين لموجبٍ دلاليّ، أو أنَّ هذا التّرتيب من باب تقديم الأعظم والأعلى وذي الأهميّة، فالشّأنُ أنْ يتقدَّمَ ذِكْرُ الأعظم والأعلى مكانًا على غيره، والأهمّ في قداسته، أو جاء هذا التّرتيب تناسبًا مع السّياق الذي يتحدّث عن الأُلوهيّة والمُلك والقُدرة والتّصرّف.

معنى (الواو) ودلالتها في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ عاطفة، والمعطوفُ عليه جملة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، فكلا الجُملتين نفتْ عن الآلهةِ أيَّ ملكٍ، ففي الجملة الأولى نفى عنهم أيّ ملكٍ مستقلّ لأيّ شيءٍ في هذا الكون، وفي الجملة الثّانية نفى ملكيتَهم لشيءٍ ولو على سبيلِ المشاركة؛ أيْ: بعد أنْ نفى عنهم الملكَ الخالص عن شوبِ المشاركة، نفى المشاركةَ عنهم أيضًا؛ تكذيبًا لهم فيما يدّعونه؛ أيْ: إنّ هؤلاء الذين زعمتموهم شركاءَ للّه تعالى في العبادة، لا يملكون شيئًا في هذا الكون ملكيّةً خاصّةً على سبيلِ الاختراعِ والاستبدادِ والتّصرف، ولا على سبيلِ المشاركة لغيرهم[2]، وفي نفي نوعي الملكِ عن آلهتهم المزعومة بيانٌ لغايةِ عجزِها وضعفها، وبرهانٌ لضلالهم.

نفيُ مشاركة الآلهة لما في السموات والأرض برهانٌ آخر لكذبهم فيما يدّعونه

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾:

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها[3]، نفتْ أنْ يكون للآلهةِ المزعومةِ أيُّ شركةٍ في السّماوات

نفيُ أيّةِ شَرِكَةٍ للآلهةِ المزعومةِ دلالةٌ على عدمِ استحقاقها للعبادة

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 417، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.

والأرض، وقد أفادَ هذا النَّفيُ بطلانَ عبادتهم لهذه الآلهةِ المزعومةِ، وإثباتَ عجزِها وعدمَ استحقاقِها للعبادة.

معنى (اللّام) ودلالتُها في ﴿لَهُمْ﴾:

لام ﴿لَهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ لامُ الملك؛ أيْ: نفي أيّ ملكٍ للآلهةِ المزعومة في السّماوات والأرض على سبيلِ المشاركة، والمعنى: وما لتلك الآلهةِ التي يزعمونها شريكةً لله من شركٍ في أمرٍ من أموره.

ليس للآلهة المزعومة أيُّ ملكٍ في السّماوات والأرض على سبيلِ المشاركة

معنى (في) ودلالتُها في: ﴿فِيهِمَا﴾:

(في) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ حرف جرّ معناه الظّرفيّة؛ أيْ: نفيُ شركةِ الآلهة المزعومة لأيّ جزءٍ في السّماواتِ والأرض، ولا فيما فيهما من موجودات.

نُكْتَة تقييد المتعلّق ﴿لَهُمْ﴾ بالقيد ﴿فِيهِمَا﴾:

في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ قيّد البيانُ القرآنيُّ عدمَ شركة الآلهة المزعومة بقيد ﴿فِيهِمَا﴾ – العائد على السّماوات والأرض – ؛ للتّعميم عرفًا، والمراد نفيُ شركتِهم لجميعِ الموجودات؛ أيْ: وما لتلك الآلهةِ التي يزعمونها شريكةً لله من شركٍ في أمرٍ من أموره لا فيهما ولا في غيرهما البتّة، وفي هذا دلالةٌ على منتهى عجزِ آلهتِهم المزعومة.

نفيُ شركةِ الآلهةِ المزعومة لجميعِ الموجودات في السّماوات والأرض

غرض تقديم ﴿فِيهِمَا﴾ على ﴿شِرْكٍ﴾:

قدّم البيانُ الإلهيُّ الجارَّ والمجرور ﴿فِيهِمَا﴾ على المسندِ إليه ﴿شِرْكٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، ولم يقلْ: (وما لهم من شرك فيهما)؛ للاهتمام بقيد ﴿فِيهِمَا﴾ الرّاجعِ إلى السّماوات والأرض، وللتّشويق إلى المُؤخّر وهو قوله: ﴿شِرْكٍ﴾، أي: الاهتمام بنفي مُلكِ الآلهةِ المزعومة لأيّ شيء في السّماواتِ والأرض مُلكًا على سبيلِ الشّركة.

اهتمامٌ بنفي ملكِ الآلهة المزعومة لما في السّماواتِ والأرض على سبيلِ الشّركة

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتُها في ﴿مِن شِرْكٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ حرف جرّ زائد للتّوكيد، والتّقدير: ما لهم شِرْكٌ في السَّماوات ولا في الأرض[1]، والغرضُ منها توكيدُ عموم النّفي واستغراقِه[2]؛ أيْ: تأكيد نفي أيّة شركة للآلهة المزعومة في السّماوات والأرض.

تأكيدُ نفي أيّ شركةٍ للآلهةِ المزعومة في السّماواتِ والأرض

دلالة التّعبير بـ﴿شِرْكٍ﴾:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿شِرْكٍ﴾ في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ دون غيره؛ لمناسبة معانيه للسّياق، فالشركُ يدلّ في أصله على مُقارنةٍ وخِلافِ انْفِرادٍ، ومعنى الشّرك هو الشّركة؛ أيْ: مخالطةُ الشّريكين[3]، واتخاذُ شريكٍ لله هو أعظمُ كفرٍ؛ لأنّه يُنافي إفرادَه بالعبادة، ومن معاني الشِّرك أيضًا: النَّصيب[4]، وهذه المعاني تتناسبُ مع السّياق الذي يَذمّ المشركين الذين اتّخذوا آلهةً باطلة، وجعلوها شريكًا لله في العبادة، فيبرهنُ على خطأهم ويبطلُ زعمَهم؛ فينفي عن هذه الآلهةِ المزعومة أيّ نصيبٍ وأيّ ملكٍ للسّماوات والأرض على سبيلِ الشّركةِ مع الله، ويثبتُ أنّ ملكَ السّماواتِ والأرض ينفردُ به دون غيره.

ليس للآلهةِ المزعومة أيّة شركةٍ لا خَلْقًا ولا مُلْكًا ولا تصرُّفًا

نُكْتَةُ تنكير لفظِ ﴿شِرْكٍ﴾ في الآية الكريمة:

جاء تنكيرُ لفظ ﴿شِرْكٍ﴾ لإفادةِ العموم، فالنّكرةُ في سياقِ النّفي تُفيدُ العمومَ، والمعنى: وما لآلهتهم أيّةُ شركةٍ في السّماواتِ والأرض، لا خَلقًا ولا مُلكًا ولا تصرّفًا[5].

غرضُ حذفِ مُتعلّق الشِّرك:

حَذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلّقَ الشّركِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ

من بلاغةِ القرآن الحذفُ للإيجاز

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 160.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شَرَكَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شرك).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 309، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.

فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، ولم يذكره، والتّقدير: ما لهم فيهما من شركٍ مع اللّه؛ إيجازًا لأنّه محلّ الوفاق[1]، فهو مفهومٌ من السّياق، ولا خلافَ في أنّ المعنى نفيُ الشّركِ مع اللّه.

معنى (الواو) ودلالتُها في ﴿وَمَا لَهُۥ﴾:

نفيُ الملكِ والشّركةِ والمظاهرةِ عن الآلهةِ المزعومةِ إثباتٌ لكمالِ عجزها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ عاطفة[2]، عُطفتْ على قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾؛ فالجملُ الثّلاثُ المعطوفة بيّنتْ حالَ الآلهةِ المزعومة، حيثُ نفتْ عنهم أيَّ مُلكٍ لأيّ شيءٍ في هذا الكون، سواءٌ أكان مستقلًّا أم على سبيلِ المشاركة، ونفتْ أنْ يكونَ منهم للّهِ تعالى معينٌ في شيءٍ من قدرته؛ أي: انتفى ملكهم لأيّ شيء في السّماواتِ والأرض، فانتفى أنْ يقدروا على إعانةِ غيرهم، فظهرَ عجزُ معبوداتهم من جميعِ الجهات، وثبتَ أنّ المالكَ والمُتصرّفَ في هذا الكون هو اللّهُ وحدَه، دون حاجةٍ إلى عونٍ من تلك الآلهة أو من غيرها[3].

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾:

نفيُ أيِّ عونٍ للّهِ من الآلهةِ المزعومةِ دلالةٌ على عجزها وعدمِ استحقاقها للعبادة

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها، نفتْ أنْ يكونَ للّه جلَّتْ قدرتُه من هؤلاءِ الآلهةِ معينٌ يعينهُ على خَلْقِ شيء، ولا على حفظهِ ولا على تدبيرِ أمرٍ من أمورِ السّماواتِ والأرض ومن فيهما[4]، فأفادَ هذا النّفيُ عجزَ الآلهةِ وعدمِ استحقاقها للعبادة، وبيّن خطأَ المشركين في اتّخاذهم آلهةً عاجزةً من دون اللّه.

معنى (اللّام) ودلالتُها في المتعلّق ﴿لَهُۥ﴾:

نفيُ أن يكونَ للّهِ تعالى أيُّ عونٍ خاصّ من الشّركاء

لام ﴿لَهُۥ﴾ العائدةُ إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ هي لامُ الاختصاص؛ أيْ: نفي أنْ يكون للّهِ تعالى أيُّ عونٍ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 286.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 264، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 287.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 394، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 8/ 265.

خاصٍّ من الشّركاء، والمعنى: وما لله تعالى من آلهتهم المزعومة من مُعينٍ يُعينُهُ في تدبيرِ أمرٍ من أمورِ السّماوات والأرض.

معنى (مِنْ) ودلالتُها في: ﴿مِنْهُم﴾:

حرف الجَرّ (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم﴾ ابتدائيّة، والمعنى: وما لَهُ تعالى مِنْ عونٍ مبتَدَءٍ منهم.

سِرُّ تقييد ﴿لَهُۥ﴾ بالقيد ﴿مِنْهُم﴾:

أتى البيانُ القرآنيُّ بالمتعلّق ﴿مِنْهُم﴾ العائدِ إلى الآلهةِ المزعومة في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ مع أنّه ليسَ للهِ تعالى أحدٌ يعينه أو يظاهره فيما يريد من إيجادٍ أو إعدام، أو في تدبيرِ أمورِ السّماوات والأرض؛ بل الأمرُ كلّه إليه وحدَه؛ لكنّه صرّح بالمتعلّق ﴿مِنْهُم﴾ ردًّا على المشركين، إذْ زعموا أنّ آلهتَهم تُقرِّب إليه سبحانه وتُبعِدُ عنه[1]، إذِ السّياقُ في ذمِّ الشّركِ وبيانِ خطأ المشركين في زعمهم.

ردُّ القرآنِ على المشركين الذين زعموا أنّ آلهتهم تقرّبُ إلى الله وتبعدُ عنه

غرض تقديم ﴿مِنْهُم﴾ على ﴿ظَهِيرٍ﴾:

قدّمَ البيانُ الآلهيّ الجارَّ والمجرور ﴿مِنْهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، والتّقدير: (وما له من ظهيرٍ منهم)؛ وذلك للاهتمامِ والتّركيز على نفي العونِ منهم خاصّة؛ لأنّ السّياقَ في الرّدِّ على المشركين الذين يزعمون أنّ أصنامهم شركاءُ مع الله، كما أنّ في التّقديم مراعاةً للفاصلة القرآنيّة.

الاهتمامُ في نفي العونِ من الشّركاءِ خاصّة، ردًّا على المشركين

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في قوله: ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ حرفُ جرّ زائد للتّوكيد، والتّقدير: (وما له منهم ظهير)[2]، والغرضُ منها توكيدُ عموم النّفي واستغراقُه[3]؛ أيْ: تأكيدُ نفي أيّ عونٍ لله تعالى من الآلهةِ المزعومة.

تأكيدُ نفي أيّ عونٍ للهِ تعالى من الآلهةِ المزعومة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 187.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 266، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 160.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/ 175، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 499، وابن عثيمين، تفسير سورة سبأ، ص: 160.

سِرُّ إيثارِ التّعبير بصيغة ﴿ظَهِيرٍ﴾:

عجزُ الآلهةِ عن إظهارِ أيّ عونٍ لله غايةُ البرهانِ على عجزها الكليّ

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ظَهِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾؛ لمناسبته للسّياقِ والمقام، فالسّياقُ هو الطّلبُ من المشركين دعاءَ آلهتهم المزعومة، وذلك لإقامةِ الحُجّة عليهم وتوبيخهم وتخطئتهم لاتّخاذهم آلهةً لا تملكُ شيئًا انفرادًا ولا شركةً مع الله، ولا تقدرُ على تقديم أيّ عونٍ للهِ ممّا يريده، والمقامُ بيانُ حالِ هؤلاء الشّركاء من شدّةِ الضّعفِ وغايةِ العجزِ، فالمشركون كانوا يعتقدون أنّ الآلهةَ تملكُ المظاهرة، فنفى اللّهُ ذلك عنهم، والعابدُ إنّما يتعلّق بمعبوده إذا كان يرجو منه العونَ بقوّة، "فالظّهيرُ الذي يعاونك ويساندُكَ بكلّ قوّته"[1].

سرُّ إيراد ﴿ظَهِيرٍ﴾ بصيغة المبالغة منكرًا:

أتى النّظمُ الحكيم في قوله: ﴿ظَهِيرٍ﴾ بصيغة (فعيل) التي تكون للواحدِ والجمع، وهي من أبنيةِ المبالغةِ والتّكرار[2] التي تدلّ على قوّةِ الفعل، وتدلّ على الكثرة، أي: ليس لله أيُّ أعوانٍ يظاهرونه، والمرادُ المبالغةُ في نفي أيّ ظهيرٍ ومعينٍ لله يُعينه في الخَلْقِ والإيجادِ والإعدامِ والتّدبير والتّصرف في أمورِ السّماوات والأرض، وجاء تنكيرُ لفظِ ﴿ظَهِيرٍ﴾ لإفادةِ العموم، فالنّكرةُ في سياقِ النّفي تُفيدُ العموم، والمعنى: ما للهِ أيُّ عونٍ منَ الشّركاء على أيّ شيء، كما أنّ التّنكير لإفادةِ التّحقير أيضًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزّعم والحسبان:

الـزَّعـمُ قـولٌ كذبٌ وادّعـاءُ ما لـم يكنْ، وهذه حـقـيـقـةُ قـولِ المشركين أنّ للهِ شركاء

الزّعمُ هو مطيّةُ الكذب، أو حكايةُ قولٍ يكون مظنّةَ الكذبِ؛ أي: إطلاقُ كلامٍ مِنْ غيرِ صِحّةٍ ولا يَقين، ولا سندَ له ولا دليلَ عليه،

(1) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12313.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/ 510.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 499.

وادّعاءٌ ما لم يكنْ[1]، بينما الحسبانُ هو اعتقادٌ عن أمارةٍ اعتدتْ به، سواءٌ كان له وجودٌ في الحقيقة أو لم يكن؛ وهو مشتقٌّ من (حسبت الحساب)[2]، والحسبانُ أنْ يُحْكَمَ لأحدِ النّقيضين من غير أنْ يخطرَ الآخرُ بباله، فيحسبَه ويعقدَ عليه الإصبع[3]، وقد فرّق أبو هلال العسكريّ بين الحسبان والزّعم؛ فذكر أنّ "الفرق بينهما أنّ الحسبانَ لا يكون إلّا باطلًا ... والزّعمُ قد يكون حقًّا، وقد يكون باطلًا"[4]، وفي كلامه نظرٌ؛ فالحُسْبانُ قد يكونُ فيما ليسَ باطلًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: 19]، إذًا فالزّعمُ هو قولُ الكذبِ، والحُسبانُ هو اعتقادٌ وحُكمٌ لأحدِ النّقيضين.

المِثقال والمِقدار:

المِثقالُ خاصُّ بالوزن فهو أخصُّ من المِقدارِ الذي يكونُ في الوزن وغيره

المِثقالُ أخصُّ من المقدار، إذِ المِثقالُ خاصٌّ بالوزن، فأصلُ (ثقل) ضِدُّ الخِفَّة[5]، ومِثْقالُ الشَّيْءِ: ميزانُهُ مِنْ مِثْلِهِ[6]، والمِثقالُ: وزنٌ مَعْلومُ القَدْر، وأصله في الأجسام ثمّ يُقال في المعاني[7]، بينما المقدارُ أعمّ منَ المِثقال؛ إذِ المِقدارُ هو المِقياس، وقَدْرُ كلّ شيء: قياسُه ومَبْلَغُه، ومقدارُ الشّيء: مثلُه ومساويه من غيرِ زيادةٍ ولا نقصان، ويكون في العددِ أو الكيلِ أو الوزن أو المساحة والقضاء والحُكم؛ أي: يشملُ الشّيء الماديَّ والمعنويّ[8].

المظاهرة والمعاونة والمشايعة:

المظاهرةُ إظهارُ العَونِ بقوّة، والمعاونةُ المَدَدُ، والمُشايَعةُ المُناصرة والمتابعة

المظاهرةُ أبلغُ من المعاونة؛ إذِ المظاهرةُ هي المعاونةُ والمساندةُ

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيوميّ، المصباح المنير، عمدة الحفّاظ: (زعم).
(2) الرّاغب، التّفسير: 1/ 115، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 2/ 52.
(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 185.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ثقل).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (ثقل).
(7) الرّاغب، المفردات، ونشوان الحميريّ، شمس العلوم: (ثقل).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قدر).

بكلّ قوّة؛ إذ أصلُها من (ظَهَرَ) ويدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ، والظَّهيرُ: المُعينُ، والأَصلُ فيه ظَهرُ الإنْسانِ، فكَأَنَّهُ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إلَى ظَهْرِكَ[1]، والظّهيرُ: هو المُعينُ الذي يُسندُ ظهرَ مَن يستعينُ به[2]، "فالظّهيرُ الذي يعاونكَ ويساندكَ بكلّ قوّته"[3]، وأمّا المعاونةُ فهي المساعدةُ والمساندةُ، والمَدد[4]، وأصلُه من الجَذْر (عون) ومعناه المحوريُّ: مَددٌ زائدٌ أو امتدادٌ من قوَّة في الباطنِ أو من الخارج[5]، بينما المشايعةُ هي المناصرةُ والمتابعةُ والمطاوعةُ، والشّيعَةُ الأَتْباعُ والأَنْصارُ، وكلُّ مَن عاوَنَ إنْسانًا وتَحَزَّبَ لَهُ فَهوَ لَهُ شيعةٌ[6]، وأصلُ (شيع) يَدُلُّ على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَة، وعلى بَثٍّ وإشادَةٍ[7]، وأصلُ الشّياع: الانتشارُ والتَّقوية، والشّيعةُ: من يتقوّى بهم الإنسان، وينشرونَ عنه أوامرَه ونواهيَه[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 11/ 806.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشعراوي: 20/ 12313.
(4) عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (عون).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عون).
(6) الفيّوميّ، المصباح المنير، والزّبيديّ، تاج العروس: (شيع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيع).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شيع).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»